رماح

أجمل من الخيال وأطيب من الورد ، تبدو كنجمة متألقة ، رقيقة كالنسمة ، خفيفة كفراشة تطير متنقلة بين أغصان الحياة ، تمتص رحيق الأزهار تستنشق أريجها ، تفوح رائحة الياسمين والعطور منها كأنها اغتسلت للتو بهما ، تضع مكياجا رقيقًا و ترتدي ملابس بسيطة أنيقة ، تتزين بروحها المرحة قبل أشيائها الرقيقة مثلها !! تخلب الأنظار و القلوب بمجرد رؤيتها !!

تلك هي رماح !! فتاة حالمة أحلامها لا تنتهي ، في مقتبل العمر لم تبلغ الثامنة عشر من عمرها بعد !!، عرفتها منذ سنوات و أصبحت صديقة لي ، تكررت زيارتها لي عدة مرات ، أعتدت أن اسمعها بشغف ، وهي تحدثني عن أبيها وأسرتها الكبيرة .

صدمتني عندما أخبرتني إن أباها متزوج من أربعة نساء ، وأنهن يقمن جميعا في منزل واحد ، وقتها خطر بفكرِ مسلسل (الحاج متولي) !! ..

قالت أن لها أثنا عشرة أخا و أختا !! و إنها تحب والدها حبا كبيرا ، .. وهو يحب أمها أكثر و أكثر ، فهي الزوجة الصغيرة و آخر من تزوج و إنها الأثيرة لديه .. يدللها هي وإخوتي .. و يلبي ما تطلبه هي أو نحن الأولاد فورا و بكل حب و رضا .

انقطعت فترة قصيرة عن زيارتي .. وفي عصر أحد الأيام جاءتني باكية حزينة ، وآثار الضرب علي وجهها وجسدها ، و حكت لي عما تعانيه و والدتها من زوجات أبيها وأولادهن أثناء تغيبه .. فهو كثير السفر وقضاء أيام خارج البيت للعمل .. فينتهزون الفرصة و يثيرون معهم المشاكل و يضربونهم و يظهرون ما في نفوسهم من حقد وغيرة منها لأنها تكمل تعليمها بتفوق .. وهم لم يستطيعوا ذلك ، يغيرون من اهتمامه بهم وعطاياه لهم ببذخ وتدليل ، ولا يكفون عن تنغيص حياتها هي و أمها !!

هدأت من روعها محاولة أن أجد كلمة مواساة مناسبة .. حتى هدأت قليلا .. توطدت علاقتنا أكثر و أقوى ، وصارت تهاتفني يوميا .. تبث لي أشجانها وتفضفض بما يمور في نفسها .. و أحاول مساعدتها على اجتياز

محنتها .. و اللجوء إلى الثقة بأن الله سيفرج كربها .. فتهدأ .. كنت لها كقارب النجاة الذي تبحر به على شواطئ الحياة ، هربا من الواقع !!

لم أعد أراها أو أسمع صوتها .. فقد غيرت رقم هاتفها ، بعد مضي أسبوعين كنت قلقة جدا عليها .. رأيتها تسير مع شاب وسيم ، سلمت عليها ، وظننت إنه أحد أقاربها .. إلا إنني اكتشفت أنهما حبيبان .. من خلال حديثهما معي .. ونظراتهما المتبادلة في سعادة وحب .

زارتني بعدها وكلها شوق ولهفة و فرحة ! لتحكي لي عن حبهما ، بل عشقهما ، شعرت إنها تورطت معه إلى حد الجنون !

كانت عيناها ترقصان سعادة وعشقا .. و أحلامها وصلت معه إلى عنان السماء ، بنت قصورًا و حدائق تتحدث عن ذلك الذي أحبته ، فكأن زهورا قد تفتحت وانتشر عبيرها ، فقد خططا لكل شيء الخطوبة والزواج ، حتى إنهما اختارا أسماء أطفالهما !!؟ فتمنيت لها السعادة من قلبي .

غابت شهورًا وقل اتصالها بي حيث انشغلت بحبيبها .

فوجئت بها تهاتفني باكية فقد منعها والدها – من كثرة تحريض إخوتها – من استمرار دراستها وأنها تشعر بأنه لا أمل من خطبتها أيضا !! لأن أم حبيبها رفضت ذلك باصرار !!

واسيتها ببعض الكلمات التي لا تسمن و لا تغني من جوع !! وطلبت منها الدعاء دوما ، فالله وحده هو المعين الموفق لكل خير .. و اذا كان مقدرا لها العودة للدراسة فستعود رغما عن الجميع ، واذا كان حبيبها مقدرا لها زوجا ، فسيكون !!

بعد أيام أتصلت بي و كانت سعيدة جدا و أحسست من صوتها أنها تكاد ترقص !! بعودتها للدراسة .. فرحت لفرحها و باركت لها وتمنيت لها النجاح و السعادة دوما .

مرت الأيام .. و كان الاتصال بيننا قليلا .. فقد انشغلت بالدراسة .. حتى انتهت من امتحاناتها .. وهنأتها بالنجاح موصية أياها أن تحافظ على تفوقها .. وذات ليلة اتصلت بي لتخبرني أن حبيبها تقدم لخطبتها بعد أن أقنع والدته

.. فرحت وهنأتها متمنية لها إتمام الزواج إن شاء الله .. إلا إنها استدركت باكية .. لكن إخوتي يحاولون الضغط على والدي لأنه محام ، غيرة منهم و حسدا .. مما جعل والدي يطلب منه الانتظار متعللا بعلل واهية .. تنطوي على الرفض !

و رجتني الدعاء لها بأن تنزاح تلك الغمة .. و يوافق والدها !! فهي تحبه و لا تتخيل نفسها مع أحد غيره أبدا ، فهو بالنسبة لها ليس مجرد حبيب فحسب .. بل هو أبوها وأخوها و صديقها ، ولن ترضى بغيره مهما حدث !!.. فكم كان إنسانا شريفا معها .. فهي تأمنه علي نفسها و لا تخشى منه أن يخذلها أو يغرر بها .. ودللت على ذلك بأنها قد زارته في بيته عندما علمت إنه مريض ، ولم تكن والدته بالبيت ، وأعدت له طعامه واطمأنت عليه وأعطته دوائه ، و قبل أن أعاتبها وألومها واستنكر ما فعلته ..

قالت : أرجو ألا تلوميني فإنني أحبه ، وهو يخاف علىَ من نفسه .. ويحميني ويحفظ شرفي و كرامتي .. لقد عشقت رجولته .. و كان كل يوم يمر وكل لقاء بيننا يثبت لي ذلك وأكثر !! أحببته كثيرا و لن يفرقنا إلا الموت

أخافني كلامها و خشيت أن تُصدم نفسيا مالم يجمعهما القدر و أن تؤدي صدمتها إلى ما هو أشد و أصعب !! ظللت أدعو لهما دوما في صلاتي ، أن يجمعهما الله ويجمع كل متحابين ، وألا يكتب الفراق أبدا على عاشقين لأنه مرير وموجع !

مرت شهور، كنا نتهاتف .. كل فترة و كانت تزورني قليلا .. نتحدث ونحكي .. وتحدثني عن آمالها و أحلامها وأمنيتها الكبرى أن يوافق والدها !

قبل العيد بأيام حدثتني بالهاتف وهى تبكي .. و أخبرتني بأن والدها رفض تماما حبيبها .. بل وافق على آخر .. تحت إلحاح إخوتي وتحريض أمهاتهم .. ازداد نحيبها و بكاؤها .. ظلت تبكي وهي تردد " لن أتزوج غيره و إن أجبروني سأنتحر " !!

حاولت تهدئتها بكلماتي وأن هذا هو قدرها ، ولترضى فقد يتغير الحال .. ولكن لم يفد كلامي معها شيئا .. فقد تملك حبه كل جوارحها .. و استولى على قلبها مستبدا .. ولم أملك إلا أن أدعو الله أن يعينها على ما في قلبها .

بعد عودتي من إجازة قصيرة قضيتها في قريتنا بمناسبة العيد .. اتصلت برقم رماح هاتفيا لأطمئن عليها .. لم تكن هي صاحبة الصوت .. سألت عنها .. و أين هي ؟ .. كان الرد صادما .. نزل عليَ كالصاعقة .. لقد ماتت رماح !؟ و أذهلتني الفاجعة !؟ كيف ماتت و هي بُرعم لم يتفتح بعد ؟! .. استغفر الله .. غفرانك يا الله !! ..

يا إلهي يا رماح ماذا فعلتي بنفسك يا صغيرتي ؟!

توجهت إلى منزلها للمواساة .. والعزاء .. أخبرتني أختها أنها بعد رفض أبيها حبيبها و إصراره على أن تترك التعليم لتتزوج من اختاره لها .. لم تتحمل ذلك .. وألقت بنفسها من النافذة منتحرة .. نفذت ما أرادت .. وفضلت الموت على الحياة دون حبيبها !!

رحماك يا رب بها و بنا .. تُرى هل كان حبيبها يستحق أن تخسر حياتها من أجله ؟!

وماذا فعل ؟ أو ماذا سيفعل ؟! هل حارب العالم من أجلها ، كما فعلت هي ؟!

هل كان فعلا بطلا كما كانت تراه ؟!

لا شيء يستحق أن تخسر حياتها من أجله ! .. سيعيش هو حياته وسينساها ليبدأ قصة حب أخرى وتصبح هي مجرد ذكرى حب مضى .. و صفحة انطوت في حياته !

أي حزن هذا وأي ألم سببتِهِ لي .. ولأهلكِ يا (رماح) ؟! فراقك صعب جدا ، يا رحمة الله احتويها و احتويني !!